الصناعات المعدنية في الجزائر خلال الفترة العثمانية

آيت سعيد نبيلة

جامعة الجزائر2

1. استغلال المناجم بالجزائر:

تزخر الجزائر بعدة مواقع غنية بالمعادن كعنابة و سكيكدة وجيجل و بجاية و تبسة وتنس حيث معدن الحديد ، وقالمة وسكيكدة و القل و سوق أهراس وتبسة وجبل إشمول بمنطقة الأوراس وسطيف وملیانة والونشريس وغليزان وتازوت الواقعة بين وهران و أرزيو و سعيدة و سبدو المتوفرة على الرصاص. أما النحاس فينتشر بجبل الونزة بتبسة و جبل مزوزية شرق مسكيانة و جبل سيدي رغيس شمال غرب عين البيضاء وقسنطينة وجيجل و قرب تنس و مغنية.

و قد اقتصر استغلال مناجم شمال إفريقيا في الفترة القديمة على الاستعمال المحلي لعدة أسباب منها غنى الإمبراطورية الرومانية بالمعادن المستخرجة من مناجم إيبيريا وغيرها من المناطق تحت نفوذها؛ لذا فإن مناجم شمال إفريقيا و منها الجزائر لم تعرف نشاطا حقيقيا إلا في الفترة الإسلامية.[1]

و يؤكد هذا ما ورد في كتب الرحالة و المؤرخين أمثال اليعقوبي و ابن حوقل والبكري. إذ يذكر اليعقوبي مدينة مجانة[2]، الواقعة على بعد أربعة مراحل من القيروان، تحيط بها جبال تحتوي على معدني الفضة والحديد.[3] كما يذكر ابن حوقل، في القرن 4 هـ / 10 م، نفس المنجمين بنفس المدينة (مجانة).[4]

وبدوره يشير البكري، في القرن 5هـ/ 11م، إلى ذات المدينة الشهيرة باسم "مجانة المعادن" لكثرة المعادن بها منها معدن الفضة؛ كما ورد في وصفه

[1] Gsell (S.), « Vieilles exploitations minières dans l'Afrique du Nord », in, revue Hespéris, t.VIII,Paris, 1928, pp.1-21.

[2] تقع بالشرق الجزائري، على الطريق المؤدي لبغاي.

[3] اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب)، كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن، ط.2، 1967، ص.349.

[4] ابن حوقل (أبو القاسم)، كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.، ص.84.

بلاد كتامة قوله: " و ببلاد كتامة حجر اللازورد الجيد ومعادن النحاس و الحديد ..."[5]

أما ياقوت الحموي فيشير، في معجمه، إلى وفرة معدن الرصاص بمجانة: " مجانة بينها و بين القيروان خمسة مراحل، بها زعفران كثير ومعادن حديد وفضة و معدن المرتك و الحديد والرصاص في جبل من جنوبها و تقتلع حجارة للطواحين تحمل إلى القيروان وغيرها من مدن المغرب".[6]

رغم أن الرحالة لا يشيرون إلى كمية إنتاج المعادن إلاّ أنّ ذكرهم لها يدل على كونها ذات اعتبار، تكفي لسدّ الطلب المحلي.[7]

ونظرا لتوفر المواد الخام، عرف المغرب الإسلامي خلال القرنين 3-4 هـ/ 9-10م، صناعات معدنية كالصناعات الحديدية المتمثلة في الأسلحة إذ

[5] البكري (أبوعبيد عبد الله بن عبد العزيز)، كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب،جزء من أجزاء كتاب المسالك و الممالك، تقديم دوسلان، الجزائر، 1857، ص. 145، ص. 33.

[6] الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت ابن عبد الله)، معجم البلدان، بيروت، 1957، ص.56.

[7] يوسف (جودت عبد الكريم)، الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث و الرابع الهجريين (9-10 م)، دار المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993، ص. 84.

يذكر بن عذارى أن أهل كتامة "تقلدوا السيوف المحلاة" عند أوّل نصر لأبي عبد الله الشيعي[8] سنة 292 هـ/904م، ويذكر ابن عذارى، كذلك، أن أوّل ما بدأ أبو القاسم الشيعي[9] " أن أمر عماله في سائر البلدان بعمل السلاح و جميع الآلات الحربية"، و هي عديدة و متنوعة، و منها السيوف التي لا يخلو بيت منها، حتى أن بيت الإمام عبد الرحمان بن رستم لم يخل من السيف[10].

كما عرف المغرب الإسلامي خلال هذين القرنين استعمال الفضة، إلى جانب الذهب، في سك النقود و صناعة الحلي والأواني. إلى جانب هذا، فقد وجدت صناعة نحاسية، تتمثل منتجاتها في الأدوات كالمهارس والطناجر والجرار لسقاية الماء وأجراس تعلق في رقاب الدواب، كما استعمل في سك الفلوس.[11]

[8] أبو عبد الله الشيعي((288 – 298 هـ / 901 – 910 – 911 م)، من دعاة الدولة الفاطمية (الدعوة السرية). سكّ دنانير تحمل شعار الدولة الفاطمية.

[9] أبو القاسم محمد القائم بالله (322–334 هـ/ 934–954 م) ثاني خليفة فاطمي بعد عبيد الله المهدي (297–322 هـ / 934–945 م)، ضرب عملة باسمه.

[10] يوسف (جودت عبد الكريم)، نفس المرجع، ص.100.

[11] نفسه، ص.102–105.

و نظرا لأهمية المعادن في الميدان الاقتصادي، فقد استمر اهتمام الدويلات والإمارات التي تعاقبت على المغرب الأوسط؛ و من مظاهر هذا الاهتمام، عناية عبد المؤمن بن علي بعمال المناجم بضمان أمنهم و سلامتهم عن طريق تعزيزات عسكرية رغم الصراع بينه و بين المرابطين.[12]

و تدل المصنوعات المعدنية المحفوظة بمتاحفنا و التي تعود إلى الفترات الحمادية والموحدية والزيانية و المرينية على وجود صناعات معدنية بالمغرب الأوسط خلال الفترة الإسلامية.

عرفت الجزائر خلال العهد العثماني، استمرارية استغلال المناجم، و هذا ما يدل عليه ما ورد في ذكر الوزان و كربخال لعدة مناطق تزخر بالثروة المعدنية كتفسرة حيث الحديد و منطقة القبائل التي تتوفر أيضا على معدن الفضة، و معدن التوتياء (الزنك) بجبل الونشريس بكميات كبيرة.[13]

[12] بن قربة (صالح)، المسكوكات المغربية الأندلسية على عهد الموحدين و الحفصيين و المرينيين، خلال القرون السادس، السابع و الثامن الهجري/ الثاني عشر، الثالث عشر و الرابع عشر ميلادي – دراسة حضارية–، دكتوراه دولة ، 1994–1995، جامعة الجزائر، ص.835.

[13] أنظر كتاب : الوزان(حسن بن محمد الفاسي)، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي و محمد الأخضر، ج 2 ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.2، 1983،

يشير قزال (Gsell) إلى استغلال المناجم في الفترة العثمانية من خلال ما ذكره الكتاب الأجانب أمثال شاو (Shaw) ومعاصره بيسونال (Peyssonnel)، واصفا إياها بالضعيفة مقارنة بالكمّ الكبير من المناجم الغنية بمختلف المعادن.[14]

2.أهم المعادن المستعملة لدى العثمانيين و خصائصها:

أولى المسلمون اهتماما كبيرا بالمعادن نظرا للحاجة إليها؛ فقد كان الذهب والفضة والنحاس ضروريين لسك العملة و أغراض أخرى، مثلما كان الحديد و الفولاذ مهمين لصناعة الأسلحة وغيرها من المنتجات، و قد أدت هذه الحاجة إلى ازدهار في الميدان الاقتصادي سيما استخراج المعادن[15]

و تعدينها و كذا التجارة فيها.[16]

ص. 24، 45، 102، **أنظر كذلك :** كربخال (مارمول)، إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي و محمد زنيبر و محمد الأخضر و أحمد التوفيق و أحمد بنجلون، ج2 ، دار نشر المعرفة، الرباط، 1988-1989، ص.323، ص. 373-375.

[14] Gsell (S.), Op.Cit. pp.1-21.

[15] انقسمت المناطق التي دخلت تحت سيطرة المسلمين إلى أراضي آلت إليهم عن طريق الفتوحات, وأراضي صلح تم ضمها بإخضاع سكانها؛ فالمناطق التي أخذها

1.2. أهم المعادن المستعملة لدى العثمانيين:

كغيرهم من المسلمين، استخدم العثمانيون أنواعا مختلفة من المعادن في تشكيل وزخرفة تحفهم، خاصة النحاس و الذهب و الفضة والحديد. واحتل معدن النحاس الصدارة لدى العثمانيين في صناعة الأواني والأدوات المختلفة ذات الاستخدام اليومي نظرا لوفرة هذا المعدن بمنطقة الأناضول[17] وبالمناطق الأخرى التي كانت تحت السلطة العثمانية كمنطقة

المسلمون بالقوة أصبحت من ممتلكاتهم، في حين أن أراضي الصلح بقيت في أيدي أهاليها القدامى؛ و لقد اتفق علماء المذهب المالكي في إفريقيا أن المناجم التابعة لأراضي المسلمين، للخليفة أو الإمام الحق وحده في تسييرها الجميع و استغلالها، تحت مراقبة مندوب يعينه لأجل ذلك. أما المناجم الواقعة في أراضي الصلح فإنها تابعة للمستفيدين من الإخضاع، و يقول أحد الأئمة المالكيين الذي يدعى الإمام سحنون : " ... أنّ هذه الممتلكات تبقى تحت تصرف ملاكها حتى وإن دخلوا الإسلام..." أنظر: يحياوي (العمري)، الدراهم المغربية الأندلسية المربعة من خلال مجموعة المتحف الجهوي بمليانة، بحث مقدم لنيل شهادة ماجستير في الآثار الإسلامية، 2003-2004، ص.159.

[16] Baer (E.), *« Ma'din »*, in, Encyclopédie de l'islam, t. VIII, Leiden, 1995, pp. 968-989.

[17] خليفة (ربيع حامد)، الفنون الإسلامية في العصر العثماني، القاهرة، 2001، ص. 133.

إقلي بالساورة حيث معدنا النحاس و الذهب؛ و لجودته كان هذا الأخير يموّن دار السكة بالقاهرة في تلك الفترة.[18]

إلى جانب استعمال الذهب والنحاس، فقد عرفت الجزائر، خلال هذه الفترة، استعمال الحديد المتوفر بمناجمها لإنجاز عدة مصنوعات كالأسلحة وأدوات الفلاحة وغيرها.

2. تقنيات الصناعة و طرق الزخرفة:

سنتطرق في هذه الفقرة إلى الطرق و الأساليب الصناعية و الزخرفية التي نمتلك نماذجا منها:

1.2. تقنيات الصناعة:

استخدم العثمانيون معظم الأساليب و التقنيات الصناعية المعروفة في تشكيل المعادن وزخرفتها، غير أنهم أولوا أهمية لأساليب معينة دون غيرها؛ إذ استعملوا تقنية الطرق و ما يرتبط بها من عمليات، إلى جانب استعمالهم لتقنية الصب في القوالب وخاصة القوالب الرملية.[19]

[18] Baer (E.), Op.Cit., pp. 968-989.

[19] خليفة (ربيع حامد)، نفس المرجع، ص. 136.

1.1.2. تقنية الطرق (le martelage):

تعد تقنية الطرق من ضمن التقنيات التي لجأ لها العثمانيون لإنجاز مصنوعاتهم المعدنية، و هي طريقة قديمة عرفها من سبقهم من صناع المعادن المسلمين.

يستخدم الطرق في عمل العديد من التحف المعدنية ذات الاستعمال اليومي، حيث توضع صفيحة المعدن على سندان وتطرق وتدخل في تجويف لتشكل تقعيرا في الصفيحة و تعطي للتحفة شكلها المطلوب.[20]

2.1.2. تقنية السكب أو الصب:

عرف الصناع المسلمون عدة طرق للصب، منها السكب في قوالب مفتوحة لصنع تحف صغيرة وبطرق بسيطة وهي ذات سطح واحد منبسط، كما استخدموا قوالب منقوشة بالعكس على الصخر.

[20] وارد (راشيل)، الأعمال المعدنية الإسلامية، ترجمة ليديا البريدي، دمشق– القاهرة، 1998، ص. 41.

كما استخدم المسلمون السكب على الرمل و يتم بضغط جانبي الشيء المراد سكبه داخل حاضن معدني و يضم الجانبان للصب، تمكن هذه الطريقة الصانع من إنجاز نسخ أخرى.

و لإنجاز منتجات أكثر تعقيدا، يلجأ الصانع إلى استعمال قوالب مؤلفة من عدة قطع. و يقوم بإنشاء الشكل المعدني المطلوب من مادة الشمع أو أي مادة أخرى حول نواة مفرغة، ويغطى بالصلصال لتكوين قالب الصلصال الجاف؛ و يقطع بعد ذلك إلى أقسام بحيث يؤخذ كل قسم دون تضرر القسم الآخر.

يتم التخلص من المادة التي صنعت منها النواة، إن كانت هناك نواة، بسحبها إلى الخارج بواسطة قضبان حديدية قبل سكب المعدن المذاب في الفراغ.

و لتسهيل العملية على أنفسهم، كان صانعوا المعادن المسلمون يستخدمون قالبا مؤلفا من عدة أقسام و يلحمونها مع بعضها البعض.

مثلما شاع لديهم استخدام تقنية السكب بالشمع المذاب أو الشمع الهالك، تتم العملية بإزالة النموذج بتذويب الشمع المصنوع منه و سكبه إلى خارج القالب. و بعد ذلك يكسر القالب الخارجي للحصول على التحفة بعد سكب

الفراغ الناتج عن إزالة الشمع بالمادة المعدنية المطلوبة، و لا يمكن استعمال القالب مرة ثانية فهو قالب هالك.[21]

إلى جانب هاتين التقنيتين، استخدم صانعوا المعادن العثمانيون تقنية الخراطة (أو التدوير) باستعمال الدولاب لإعطاء الشكل الدائري أو الأسطواني للتحف التي تتطلب ذلك، و بعد التدوير تنزع الأجزاء الزائدة بواسطة آلة حادة.[22]

2.2. طرق الزخرفة: تتمثل أهم الطرق الزخرفية العثمانية فيما يلي :

1.2.2. الحز و الحفر:

استخدم العثمانيون طريقة الحز على المعادن منذ وقت مبكر، و خاصة في تنفيذ الأرضيات النباتية و الأرابيسك، و كذلك في تنفيذ الزخارف الكتابية و الهندسية، عكس طريقة الحفر التي استعملت بصورة أقل.[23]

[21] وارد (راشيل)، المرجع السابق، ص.39-40.

[22] Arseven (C.E.), Les arts décoratifs turcs, Istanbul, S.D., p.129.

[23] خليفة (ربيع حامد)، نفس المرجع، ص.136.

2.2.2. الطلاء أو التمويه بالذهب و الفضة:

تستخدم طريقة الطلاء بالذهب و الفضة لغرضين أولهما وظيفي يتمثل في حماية المعدن من التآكل، و ثانيهما جمالي، و قد استعملت هذه الطريقة على نطاق واسع على المعادن العثمانية. إذ كان العثمانيون يقومون بطلاء النحاس بالفضة أو بالذهب.

و يعرف النحاس المطلي بالذهب باسم " التومباك".[24]

3.2.2. الطلاء بالقصدير أو القصدرة:

كان النحاس من المواد الأكثر استعمالا لدى صناع المعادن المسلمين، غير أنه كان عرضة للتآكل و الطعم غير المستحب و التسبب بأمراض التسمم المعدني من جراء تفاعله مع بعض المواد الحمضية، لذا لجأ الصانع إلى طلاء أواني المطبخ بطبقة من القصدير العازل.

وقد كانت طبقة القصدير، إلى دورها الوظيفي الواقي من التسمم، تلعب دورا زخرفيا يتمثل في إضفاء بريق الفضة على تحف النحاس.

[24] نفسه، ص.136-137.

4.2.2. التخريم:

بتم الحصول على الزخارف المخرمة إما عن طريق تفريغ الزخرفة بواسطة آلة حادة يطرق عليها أو بواسطة الصب في القالب. استخدمت طريقة التخريم وظيفي إلى جانب الغرض الزخرفي، إذ تم استعمالها في صنع المصابيح و المباخر، كما استعملت في زخرفة المقابض و قواعد الأواني، وغيرها ...[25]

5.2.2. التكفيت:

التكفبت من الطرق الزخرفية المعروفة لدى المسلمين، إذ يذكر المقريزي في وصفه للقاهرة سوق الكفتيين حيث توجد عدة حوانيت لعمل الكفت، و يعرّف الكفت أنه ما تطعم به أواني النحاس من الذهب و الفضة.[26]

يتطلب التكفيت مهارة و وقتا، إذ يقوم الصانع بحفر أخاديد على سطح التحفة وفق التصاميم، ويأخذ سلكا معدنيا، يكون من معدن أغلى من

[25] خليفة (ربيع حامد)، نفس المرجع ، ص. 137-138.

[26] المقريزي (تقي الدين)، كتاب المواعظ و الاعتبار في ذكر الخطط و الآثار المعروف بالخطط المقريزية، .القاهرة، ...، ص.105.

معدن صنع التحفة، ويضعه على طول الأخدود المحفور ويطرقه بعد ذلك.

و قد عرف العثمانيون هذه الطريقة غير أنهم لم يستخدموها بكثرة إذ أن التحف العثمانية المصنوعة من النحاس المكفت قليلة جدا، أما التحف الفضية المكفتة بالذهب فهي نادرة مثال ذلك مجموعة أقفال فضية صنعت للكعبة الشريفة استخدم الذهب في تكفيت زخارفها الكتابية والنباتية.[27]

6.2.2. الترصيع:

استخدم صناع المعادن العثمانيون الأحجار الكريمة و النصف كريمة في ترصيع التحف المعدنية كالماس و اللؤلؤ و المرجان و غيرها.

وتمثلت هذه التحف في المباخر والحلي والأسلحة و غيرها.

تميّزت طريقة الترصيع لدى العثمانيين بتثبيت الفصوص في وضع مائل على سطح التحفة داخل بيوت تصنع من معدن التحفة نفسه. ثم يقوم الصانع بعد ذلك بثني حافة البيت على الفص لتثبيته، و في بعض

[27] خليفة (ربيع حامد)، نفس المرجع، ص.138-140.

الأحيان، يتم إحكام تثبيت الفصوص عن طريق شعب صغيرة شبيهة ببتلات زهرة. ثم يربط الصانع بين الوحدات بأفرع نباتية دقيقة.[28]

7.2.2. الطرق أو التطريق (le repoussage):

تستخدم طريقة الزخرفة هذه على المعادن ذات السمك للحصول على زخارف بارزة و ذلك باستعمال أختام و مطارق مختلفة، و لتنفيذ هذا النوع من الزخرفة يقوم الصانع بإذابة مزيج من الإسفلت و الصمغ، ويفرغه على لوحة في شكل طبقة سميكة تكون طرية عندما تبرد؛ يغطي بها المعدن الموجّه للزخرفة و يضع فوقها الختم و يقوم بالطرق فيحصل على زخارف بارزة وأخرى عميقة. و في الأخير يسخن المزيج و ينزعه من فوق المعدن. و غالبا ما يلجأ إلى الحفر و الحز و القطع لاستكمال زخرفة الآنية.[29]

[28] خليفة (ربيع حامد)، نفس المرجع، ص.140-141.

[29] Arseven (C.E.), Op. Cit., p.131.

3. أهم مراكز الصناعات المعدنية بالجزائر خلال العهد العثماني:

نتيجة لغناها بالمناجم و الثروات المعدنية من حديد و نحاس و فضة المنتشرة عبر مختلف أرجائها، عرفت الجزائر، خلال العهد العثماني، صناعات معدنية متنوعة ومختلفة، و من أهمّ هذه المراكز نذكر:

1.3. مدينة الجزائر:

عرفت مدينة الجزائر، خلال العهد العثماني، عددا كبيرا من النشاطات الصناعية التي تتمركز في القسم السفلي من المدينة "الوطى"[30]؛ تتمثل الصناعات المعدنية في الحلي والمجوهرات والمصنوعات النحاسية و الفولاذية وغيرها.

تتوزع هذه الحرف أو الصناعات ضمن أسواق نذكر منها: سوق "الصياغين"، سوق "الصفارين"، سوق "الدكير"، ...[31] وتوجد خارج المدينة بضاحية باب الواد "دار النحاس" لصناعة الحديد و النحاس.

[30] كانت الصناعات المضرة بالسكان تزاول خارج أسوار المدينة مثال ذلك صناعة الفخار.

[31] Klein (H.), Feuillets d'El Djezaïr, Alger, 1937, pp.33-54.

2.3. تلمسان:

كغيرها من المراكز الكبرى، اشتملت تلمسان على عدة صنائع عبر مختلف الساحات والأزقة.[32] من بينها الصناعات النحاسية المتميّزة بزخارف ذات طابع أندلسي – مغربي؛ ومن أهمّ منتجاتها الثريات.[33]

كما كانت تصنع بهذه المدينة عدة الفرس كالمهماز واللجام.[34]

3.3. قسنطينة:

امتاز سكان قسنطينة بالتحضر و مزاولة مختلف الحرف[35]؛ فقد أنتج هذا المركز الصناعي، إلى جانب مدينة الجزائر و بعض مدن الجنوب، مصنوعات من النحاس الأحمر مطلية بالقصدير، من بينها الصواني و

[32] الوزان، نفس المصدر، ص.19، و كربخال، نفس المصدر، ص.298.

[33] Carayon (G.), Le travail artistique du fer et du cuivre en Algérie, Alger, S.D., p.6.

[34] Golvin (L.), Aspects de l'artisanat en Afrique du Nord, Vol. II, Paris, 1957, p.25.

[35] الوزان (حسن)، نفس المصدر، ص.103.

أواني الحمام (المحابس) والأطباق ذات الغطاء (طبسي عشاوات) و الأباريق وغيرها ...[36] تبدو التأثيرات الشرقية على هذه المصنوعات.[37]

4.3. بوغار:

اكتسبت مدينة بوغار بحكم قربها من المدية خبرة في مجال الصناعات النحاسية التي توصف بالمتطورة. كما أنتجت بها الحلي.[38]

5.3. غرداية:

أنتجت غرداية مصنوعات نحاسية نفذت زخارفها بأسلوب الطرق بالترميل (le repoussé au sabloir)،[39] إلى جانب الحلي.[40]

36 Marçais (G.), L'art en Algérie, Alger, 1906, pp.143-144.

37 Marçais (G.), L'art musulman, France, 1981, p.166.

38 Eudel (P.), L'orfèvrerie algérienne et tunisienne, Alger, 1902, p.370, Berque (A.), L'Algérie terre d'art et D'histoire, Alger, 1937, pp.282-284.

39 Carayon (G.), Op. Cit., p.4.

40 Golvin (L.), Op. Cit., p.52.

6.3. بوسعادة:

كانت بوسعادة خلال العهد العثماني تتبع لبايليك التيطري (المدية). توافد عليها الكثير من الحرفيين، من بينهم صانعوا النحاس.[41]

7.3. الأغواط:

أنتجت الأغواط خلال الفترة العثمانية مصنوعات نحاسية و حليا.[42]

إلى جانب هذه المراكز هناك مراكز أخرى اختصت في الصناعات المعدنية الفضية والحديدية، سبق ذكرها في فقرة الصناعة في المدخل كصناعة الزناد ببني عباس بمنطقة القبائل، السيوف من نوع الفليسة بمنطقة إفليسن بالقبائل دائما، والحلي الفضية ببني يني، والأدوات الفلاحية، والحدادة بتفسرة. كما كانت احتوت بجاية على دار للصناعة.

4.البنية الاجتماعية – الاقتصادية لمدينة الجزائر: نقصد بالبنية الاجتماعية و الاقتصادية لمدينة الجزائر كلا من تنظيم الأسواق وتوزيعها، و كذا التنظيمات و النشاطات الحرفية أو الصناعية المعروفة بها.

41 Gsell (s.), les industries d'art indigène en Algérie, Alger, 1902, p.15.

42 Carayon (G.), Op. Cit., p.4, Golvin (L.), Op. Cit., p.52.

1.4. توزيع الأسواق و الحرف بمدينة الجزائر:

إن عملية التهديم التي طالت مدينة الجزائر فور دخول الاستعمار خاصة في جزئها السفلي، أدّت إلى طمس الكثير من المعالم التي تشهد على النشاطات الحرفية أو الصناعات القائمة بالمدينة أثناء الفترة العثمانية.

و يرجع الفضل إلى معرفة وجود الأسواق و تنظيم الحرف بهذه المدينة إلى ما ورد في كتب المؤرخين و الجغرافيين والرحالة في بداية القرن 16 م (10 هـ) وصفها الوزان بالمدينة ذات الأسواق المنسقة كما يجب، و لكلّ حرفة بها مكانها الخاص.[43]

وما وصف التمقروتي[44] لها باسم "اسطنبول الصغرى"[45] و تشبيهه إياها بتلك المدينة إلا دليل على مدى ازدهارها.

و يمكننا إعادة تصوّر هذه الأسواق بالرجوع إلى الدراسات التي قام بها الباحثون الفرنسيون و على رأسهم أودال (Eudel) و إيميريت (Emerit) و دوفو (Devoulx) .

[43] الوزان (حسن)، نفس المصدر، ص.37.

[44] هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي التمقروتي. ولد حوالي 1560 م بالمغرب الأقصى و توفي بمراكش سنة 1003 هـ / 159-1595 م.

[45] بلحميسي (مولاي)، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الجزائر، 1979، ص.57.

كانت مدينة الجزائر، في الفترة العثمانية، تنقسم إلى قسمين: أحدهما تجاري يقع بالمنطقة السفلى للمدينة "لوطى"، و الآخر سكني بالمنطقة العليا " الجبل".[46]

وكانت الأسواق محصورة بين الشوارع الثلاثة الكبيرة و هي باب الوادي و باب عزون والبحرية كمنطقة مركزية. تمتد بالشارع الطويل بدءا من باب عزون حيث تنتشر على امتداده نشاطات و حرف تقل أهميتها كلما ابتعدنا عن مركز المدينة، إبتداءا من تجار السوق الكبير حتى الحدادين و الصفارين بجوار الباب. أما بمحاذاة المسجد الكبير الذي يقع في شارع البحرية أو طريق باب "الدزيرة" (الجزيرة) المطل على البحر فتقوم الحرف الأساسية ذات الأهمية الإقتصاية العالية كالصاغة و البادستان أو القيسارية[47] والنساجين. وتتوزع داخل المثلث الذي تشكله مساجد الجامع الكبير والجامع الجديد ومسجد السيدة أسواق "الرصايصية" و "الفراغين" (صانعوا الأغلاق)، و النحاسين وهي حرف مربحة و مكسبة جدا، قامت حيث يكثر تجمع الناس. وكان "السباغون" يقومون أيضا أمام ساحة

[46] Missoum (S.), Alger à l'époque Ottomane La médina et la maison traditionnelle, Alger, 2003, p.242.

[47] هو سوق مخصص لتجار البضائع الغالية الثمن و تجار الجواهر و الصيارفة.

الجنينة وراء القيسارية، قرب النساجين و "الحرارين". كما يوجد غير بعيد عنها سوق "الذوابة"، و سوق "البشماقجية" (الإسكافية). ويوجد سوق الشمع يمتد من شارع باب الواد إلى "البشماقجية" محاذيا لمسجد السيدة. وتقوم في ساحة الديوان تجارة الخضر والفواكه وكان فيها سوق يسمى "بازار الكرموس"، و تحت الديوان يوجد سوق البابوشية.

كما كانت هناك سوق "الرقاقين" (وهم صانعوا قرب الماء) بجوار كتشاوة وهي رحبة الماعز.

و قد كان سوق الدباغين يتمركز داخل المدينة كون تجارة الجلود من احتكار الدولة. كما كانت بالمدينة سوقا للوح مقابلا لقصر الجنينة و سوق الخراطين عند مسجد خيضر باشا، تليها أسواق السمن، "اللحامين" وسوق الكتان.

أما سوق "الكساكسية"، فكان يقوم في سوق السمن محاذيا لسوق العقارين وسوق خضاري سوق السمن، وغير بعيد يوجد سوق الملح. يأتي بعدها سوق الدكير و سوق القزادرية و سوق الصفارين.

أما "السمارون" و الحدادون فيقعون عند مدخل المدينة لإبعاد ضجيج الصادر عنهما و لتسهيل تمويلهما بالمواد الأولية. و كانت مقالع الحجر و الجير و الصناعات الفخارية توجد في ضاحية باب الواد خارج الأسوار. و

تتوزّع داخل الأحياء أو الحارات أسواق صغيرة مكونة من عدد محدود من الحوانيت لتلبية حاجيات السكان دون الاضطرار للتنقل إلى الأسواق الكبيرة.[48]

لقد تميّزت أسواق مدينة الجزائر بما يعرف بالاختصاص، و قد لاحظ الوزان نفس الميزة في أسواق فاس و تلمسان و قسنطينة و تونس.

وهذه الظاهرة في الحقيقة تعمّ جميع المدن الإسلامية، أشار إليها رحالة مسلمون و أوربيون كابن بطوطة في القرن 8 هـ / 14 م، وتافرنييه (Tavernier) في القرن 11 هـ / 17 م، و يهدف هذا التوزيع إلى أمرين أوّلهما تمكين القاضي و المحتسب وعمالهما من مراقبة الحرفيين (حيث يجتمع أهل الحرفة الواحدة في نفس السوق)؛

و ثانيهما هو الحدّ من المنافسة غير المشروعة بين أهل نفس الحرفة. كما لعب دورا أخر هاما هو خلق جوّ التعاون والتضامن بين أهل الحرفة الواحدة و التجار.

[48] بن كردرة (زهية)، أسواق مدينة الجزائر من الفتح الإسلامي إلى العهد العثماني، رسالة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2000، ص ص.122-137، أنظر أيضا:

Missoum (S.), Op. Cit., pp.43-60.

لقد خضع توزيع الأسواق والحرف عامة إلى منطق خاص هو قرب ما هو راق ونظيف من المسجد كبيع الكتب والعطارة و غيرهما؛ أما الحرف "النجسة" فكانت بعيدة عن المركز (المسجد).[49]

عرفت المدن الجزائرية الأخرى في نفس الفترة نفس الحرف و الأسواق، منها الحدادين والصفارين، القزادرية، الجقماقمجية (صناع الأسلحة) و الصياغين، ... إلخ.[50]

[49] Touati (H.), « Note sur l'organisation des corporations de métiers à Alger au XVIIe et au XVIIIe siècles » in, Les cahiers de Tunisie, T. 34, N° 137-138, 3e et 4e trimestre 1986, Numéro spécial, pp.197-205 ; Missoum (S.), Op. Cit., pp.43-60.

[50] لمعلومات أكثر أنظر: Féraud (L.C.), « Les corporations de métiers à Constantine avant la conquête française » , in, Revue Africaine, Alger, 1872, pp. 451-454.

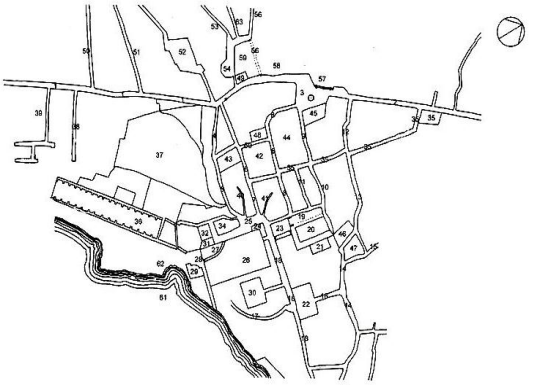

1-باب عزون

2-باب الواد (الشماعين)

3-ساحة النافورة

4-الصباغين

5-المقايسية

6-القيسارية

7-الصاغة

8-الباشماجية (الإسكافيون)

9-بياع الخضرة (بائع الخضر)

22-تبارنة عرباجي (سجن)

23-القهوة الكبيرة

24-مراحيض

25-سوق الحواتين

26-جامع الجديد

27-سوق باب البحر

28-باب البحر

29-مسجد الحواتين

30-الغورية الكبيرة (فندق البورصة)

43-مسجد المقايسية الصباغين

44-جامع السيدة

45-جامع الشاوش

46-مسيد القهوة الكبيرة

47-جامع السلطان

48-بيت المال

49-دار السكة

50-سوق اللوح (شارع القديسة)

51- حمامات (شارع باب جديد)

10-الرصايصية

11-الفراغية (صانعو الأقفال)

12-زنقة عنقتي (شارع ماهون Mahon)

13-زنقة بوجي (شارع ماهون Mahon)

14-الحاقورة (شارع ماهون Mahon)

15- سيدي جودي (شارع الألوان الثلاثة)

16-عرباجي (Rue des Sauterelles)

17-قاع السور (شارع القوس)

18-باب الدزيرة (شارع البحرية)

19-دورية (شارع la Dorade)

20-البادستان (سوق النخاسة)

31-بوعنان

32-علوي الجنان

33-جامع جقماجية

34-مسجد الربطة (ممر مسدود)

35-مسجد الشماعين

36-حصن باب البحر

37-ورشة أشغال

38- زنقة الليفورنية (شارع Palmyre)

39- ممر بوزة (ممر مسدود)

40-زنقة النحاس

41-زنقة الدوادة (ممر خيوط الذهب)

52- سوق جديد (شارع يوبا)

53- الشباغلية البابوجية

54- ساحة القوافل (شارع الديوان)

55-زنقة حسن باشا (شارع السودان)

56- زنقة حسن باشا

57-مدخل الجنينة

58-الجنينة

59-قصر الداي

60- سوق الغزل (شارع الصوف)

61-ميناء تجاري

62-ميناء صيد

21-مسجد البادستان (ساحة Mahon)

42-مسيد القيسارية (مدرسة)

63-ساباط الديوان (شارع الديوان)

خريطة 01: توزيع الأسواق بمدينة الجزائر قبل 1830 (عن Eudel 1902)

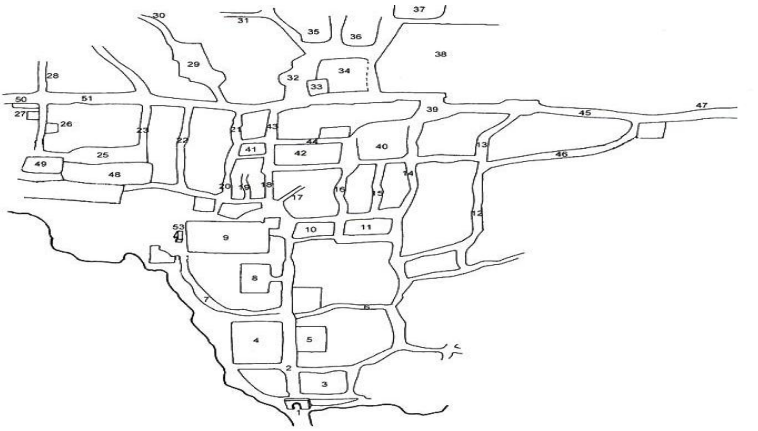

1- باب الدزيرة

2-طريق باب الدزيرة (شارع البحرية)

3-فندق الديوان

4-جامع الكبير

19- زنقة النحاس

20- زنقة المقايسية

21- زنقة الصباغين

22- سوق اللوح

37- دار مصطفى باشا (المكتبة الوطنية)

38-دار الداي

39-ساحة و نافورة

5-زاوية

6-طريق عرباجي (Rue des Sauterelles)

7- قاع السور (شارع القوس)

8- الغورية الكبيرة (فندق البورصة)

9- جامع الجديد (مسجد السماكة)

10- القهوة الكبيرة

11- البادستان

12- زنقة بوجي

13- زنقة عنقني (شارع ماهون Mahon)

14- زنقة الرصايصية

15- زنقة الفراغية (صانعو الأقفال)

16- زنقة الباشماجي

23- ممر يوبا (شارع Palmyre)

24- زنقة الليفورنيين (شارع St. Louis)

25- سوق الزيت

26- جامع فندق الزيت

27- جامع السوق الكبير

28-ساباط اللوح (شارع القديسة)

29- سوق جديد

30- سوق السمن

31- دار سركاجي القديمة (سجن)

32- ساحة القوافل (شارع الديوان)

33- دار السكة

34- دار عزيزة (الأسقفية)

40-جامع السيدة

41- مسجد

42- مسيد القيسارية (مدرسة)

43- زنقة القيسارية (الكتب)

44- سوق الغزل (سوق الصوف)

45-البلاغجية (سوق الجلد)

46-زنقة الشماعين

47-فندق السمكاوي

48-ثكنة بوزة (هدمت في 1862)

49- حمامات يهودية

50-دار اللحم (قصابة يهودية)

51-سوق الكبير

(الإسكافيون)

17-زنقة الدوابة (خياطون بخيط الذهب) **35-جامع كتشاوة (كتدرالية)** **52-جامع الربطة**

18- زنقة الصاغة **36- دار حسن باشا (قصر شتوي)** **53-باب البحر**

خريطة 02: توزيع الأسواق بمدينة الجزائر قبل 1830 (عن Emerit 1952)

2.4. التنظيم الحرفي:

إنّ حاجات الإنسان عديدة و تتطلب لتلبيتها إلى أنواع متعددة من الصناعات. وكون الإنسان لا يقدر على تعلمها كلها احتاج الناس إلى الاجتماع معا و اتخاذ المدن، وتخصص كل منهم في حرفة ما، ومبدأ التخصص هذا يؤدي إلى إتقان الصنعة والتفنن فيها.

وقد جرت العادة في مجال الصناعة أن يتخذ الصانع حانوتا يديره بنفسه أو تساعده عائلته أو شركاء له، و قد يعمل الصانع أحيانا في بيته، و كذلك قد يعمل بمفرده أو معه جماعة من المتدربين أو الصبيان. و كان صاحب المحل يسمى "المعلم"، و يكون إلى جانبه "التابع أو الأجير" و ثالث في المحل و هو "الصبي".

وفي العادة يكون بعض الصبيان هم أبناء المعلم نفسه، و بهذا فإن الحرفة تنتقل إليهم و تكون وراثية.[51]

[51] يوسف (جودت عبد الكريم)، نفس المرجع، ص ص.79-81

1.2.4. تكوين الجماعة أو أهل الصنعة:

كان أصحاب الحرفة الواحدة ينضوون في مجموعة تعرف ب"الجماعة" أو "الصنعة"، ويعرف الحرفيون ب " أهل الصنعة"[52].

يشرف على الجماعة رجل منهم يعرف ب"الأمين" يدينون له بالاحترام.

كان الأمناء بدورهم تحت سلطة "أمين الأمناء" الذي يراقب توزيع السلع و المواد في الأسواق.[53] تتكون الجماعة، عامّة، حسب قولفان (Golvin)، من "صانع" أو "صناع"، يعلوهم "نصف قالفة"، ثم "قالفة" أو "اسطى صانع" و على رأسهم "المعلم"[54].

عرفت اسطنبول نفس التنظيم الحرفي مع بعض الاختلاف في التسميات، إذ تتكون الجماعة من معلّم يعرف ب "الأسطى"، تحته صناع "قالفة" و يليهم المتعلّمون أو الصبيان "تشيراك".[55]

52 Touati (H.), Op. Cit., pp.197-205.

53 Missoum (S.), Op. Cit., p.243.

54 Golvin (L.), Op. Cit., p.32.

55 Mantran (R.), Istanbul au siècle de Soliman Le Magnifique, Paris, 1994, p.125.

1.1.2.4. الأمين و مهامه:

يشرف على الجماعة "أمين" يكون من أهل الصنعة، يعيّن بالتوافق مع إدارة البايليك. وقد يلي الأمين مساعد أو أكثر لمدّه بيد العون إذا استلزم الأمر ذلك. ففي نهاية القرن 11 هـ / 17 م، كان يشرف على جماعة "الشواشية"، أمين يساعده أربعة "معلّمين".

ويتم اختيار الأمين من بين "المعلّمين" الأكثر تجربة.[56] دوره الإصلاح بين الناس في حالة وقوع خلاف في شيء من أمورهم[57]. و بحكم معرفته بالحرفة يتفطّن إلى حالات الغشّ فيها، و من مهامه أيضا الحدّ من المنافسة غير الشريفة، و يسهر على احترام القوانين و الأعراف المتعامل بها مع الجماعات الحرفية الأخرى. فعلى سبيل المثال كان حمّالو باب الدزيرة (الجزيرة) يعملون لصالح زبائن مسلمين و كان حمّالو باب البحر يعملون لصالح زبائن يهود و مسيحيين، وعندما يوجّه التجار اليهود والمسيحيون سلعهم لبلاد مسلمة فإن الحمّالين المسلمين هم من يقومون بحملها و العكس صحيح.

[56] Touati (H.), Op. Cit., pp.197-205.

[57] يوسف (جودت عبد الكريم)، نفس المرجع، ص.82.

أمّا إذا كانت التعاملات تتم بالبادستان أو القيسارية فإنّ الحمالة تقوم على عاتق "حمالي الرمانة". فكان الأمين يفرض احترام اختصاص الجماعات الأخرى. و من مهامه الأخرى، الحرص على عدم تغلّب العصبية الطائفية على التضامن الحرفي.

فعلى سبيل المثال ينصّ القانون الخاص بجماعة القائمين بالحمامات، الموضوع في منتصف القرن 11 هـ / 17 م، على ما يلي: " عندما يترك مشرف مزابي الحمام لصالح مشرف آخر غير مزابي، يتعيّن على العاملين "الطيّابين" أو "الموتشو" البقاء بعملهم، وليس لهم حق الاعتراض على هذا التعيين."

ويلعب الأمين دور المسيّر الاقتصادي لجماعته من خلال توفير المواد الأولية و توزيعها على الورشات حسب الحاجة و الطاقة، وتحديد أسعار السلع المصنوعة من طرف أهل حرفته بمعية إدارة البايليك. تحديد أجور الصناع والصبيان، و التفاوض بشأن الرسوم التي تدفعها الجماعة للبايليك.[58]

[58] Touati (H.), Op. Cit., pp.197-205.

في أواخر العهد العثماني، أصبح الأمناء لا يهتمون إلاّ بإرضاء متطلبات الموظفين السامين والتقرب من شيخ البلد "أمين الأمناء"، الذي يعرف باسم " قايد دار" في قسنطينة، و الذي أوكل إليه الداي حق الإشراف على الحرف و مراقبة الموازين والمكاييل و المقاييس، و أعطى له صلاحية تسوية الخلافات بين المشتغلين بالصناعات و أعيان البلد، و كان لهذا دوره في تقهقر الصناعة.[59]

2.1.2.4. المعلّم:

يعتبر "المعلّم" صاحب السلطة في ورشته؛ يسيّرها و ينظّم العمل فيها بين الصناع، و له سلطة أبوية عليهم و يوفّر لهم المساعدة و الآمان.[60]

وهو يتمتّع بكامل الحقوق و إليه تعود كافة الأرباح.[61] يشكل "المعلّمين" طبقة اجتماعية ذات امتيازات، و كثيرا ما يتصاهرون فيما بينهم لتقوية مكانتهم في المجتمع.[62] يقوم "المعلّم" بتكوين "المتعلّم" أو "الصبي" و يلقّنه

[59] سعيدوني (ناصر الدين)، بو عبدلي (المهدي)، الجزائر في التاريخ العهد العثماني، ج.4 ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص. 64.

[60] Touati (H.), Op. Cit., pp.197-205.

[61] يوسف (جودت عبد الكريم)، نفس المرجع، ص.81.

[62] Touati (H.), Op. Cit., pp.197-205.

تقنيات وأصول الصنعة. و كان عدد "المعلّمين" محدودا لمحدودية الدكاكين أو الورشات. ينفرد هؤلاء بحق امتلاك دكان أو ورشة أوتجارة. يعرف هذا الحق ب "الأوسطاليك"، وأصبح بعدها يعرف ب "الغيديك".

ويعتبر امتياز "الغيديك" امتيازا شخصيا يمكن أن يورّثه "المعلّم" لغيره شريطة أن يكون هذا الأخير يمتهن نفس الحرفة.

غير أنّ المعلّمون الآخرون يملكون حق الاعتراض على ذلك. يمكن للورثة بيع هذا الامتياز لحرفي إذا كان لديه المال الكافي يدفعه بالمقابل أو لشخص لا ينتمي لنفس التنظيم الحرفي – شريطة وافقة "المعلّمين" الآخرين و موظفي الحكومة – و يمكن بيع هذا الامتياز لمعلّم آخر من نفس الحرفة كون المعلّمين لهم حق امتلاك أكثر من ورشة أو دكان.[63]

3.1.2.4. المتعلّم:

يلتحق الصبيان بالورشة لتعلّم الحرفة بين سن العاشرة و الثاني عشرة، و عليهم احترام معلّمهم. و تنصّ القوانين المسنونة، منذ القرن 11 هـ / 17

63 Mantran (R.),Op.Cit., pp.125 – 126.

م، أنّه على "المتعلّم" أن لا يغادر الورشة حتى يستكمل تعليمه و يرقى إلى درجة "معلّم"[64]. بالمقابل لا يحقّ للمعلّم رفض تعليمه.[65]

في العادة فإن بعض الصبيان هم أبناء المعلّم نفسه، و بهذا فإن الحرفة تنتقل إليهم وتكون وراثية[66]. و في هذه الحالة لا يمكن له الارتقاء إلى درجة "معلّم" في ورشة أخرى غير ورشة والده.[67]

3.4. المحتسب:

يساعد المحتسب القاضي في مهامه، و يمثّل همزة الوصل بين المجموعات الحرفية والقاضي ممثل الحكومة. فهو يراقب و يسهر على تطبيق القوانين. كما يقوم بجمع الرسوم من التجار و الحرفيين.

وهو يحدّد بالتشاور مع أمين الأمناء و القاضي أسعار البيع وفقا لأسعار الشراء و يحدّد هامش الربح. و للمحتسب مساعدوه.[68]

64 Touati (H.), Op. Cit., pp.197-205.

65 Golvin (L.), Op. Cit., p.33.

66 يوسف (جودت عبد الكريم)، المرجع السابق، ص.81.

67 Touati (H.), Op. Cit., pp.197-205.

68 Mantran (R.), Op.Cit., pp.130-131.

ويسهر أيضا على جودة السلع و احترام المكاييل و الموازين والأسعار، إذ كان يمنع الغشّ في التجارة و الصناعة.

وكانت عقوبة المخالفات صارمة.[69]

4.4. اللباس:

كان التجار و أصحاب المهن أو الحرف يرتدون أزياء خاصة بصناعتهم، و لكل مهنة زيّ خاص بها و كأنهم بها يعرفون.[70]

فقد كان التاجر العربي يلبس قميصا من الحرير أو القطن، و قميصا آخر له أزرار أمامية و خلفية و كمان ضيقان و سروال عريض يربط بحزام عريض كذلك.

وفوق القميص يلبس ثوبا عريضا يصل إلى الركبتين و ينتعل "بابوجا" أو خفا من جلد الماعز أسود و ذو كعب و يضع على كتفيه برنوسا أبيض. فوق رأسه قلنيوة أو طاقية حمراء تدور حولها عمامة بيضاء.

وكان القراب أي حامل الماء يرتدي صدرية بدون أكمام و سروال قصير و قلنسوة فوق رأسه، و يضع على الصدر وسادة صغيرة و خفيفة ليمنع

[69] بن كردرة (زهية)، نفس المرجع، ص ص.96-97.

[70] يوسف (جودت عبد الكريم)، نفس المرجع، ص.82.

البلل عن ثيابه، أما المحتسب فكان يلبس سروالا عريضا يصل إلى الركبتين، يغلق في جزئه العلوي بحبل حريري وصدرية بدون أكمام.[71] و كان الطباخون الإنكشاريون "عشجي" يرتدون قفاطين قصيرة تمكنهم من أداء مهامهم.[72]

[71] بن كردرة (زهية)، نفس المرجع، ص ص.188-189.

[72] Marçais (G.), Le costume musulman d'Alger, Paris, 1930, p. 38.